فى دنيا الأحـــلام

للأستاذ توفيق حسن الشرتونى

لا أومن بالأحلام ولا أعيرها اهتماماً جدياً ، لأنى أعتبر أكثرها ناتجاً عن عوامل الغريزة المكبوتة والعقل الباطن ، غير أنى أقف حائراً أمام بعض الأحلام التى حلمتها وأصبحت بعد قليل حقيقة راهنة لا أحلاماً طارئة لا تتجاوز مخيلة النائم ولا تمدو فراشه

وكم تساءلت : أهى المصادفة تقضى بصحة بعض الأحلام أم هو الإلهام ؟ ولكن ما هى المصادفة وما هو الإلهام ؟ وكيف أعلل حدوثهما ؟ لا أدرى

وكل ما أدرى أنى رأيت أربعة أحلام صح ثلاثة منها والرابع ما يزال غامضاً ؛ وأرجح أنه سيظل غامضاً إلى ما شاء الله

حلمت وأنا فى عهد التلمذة أن المفتاح الذى كنت قد أضعته وكان يهمنى أمره كثيراً مطمور فى التراب قرب شجرة قديمة قلبك وسما عقلك ستشعر بالسعادة تغمر نفسك . أما إذا فكرت بأنك عُوملت بأجحاف ، أو إذا ظننت أنه لا يمكنك الحصول على ما ترغب ، أو إذا لم يبدُ لك الجو جميلاً ، فلا يمكن أن تملك إلا الحزن

عند ما تمطر السماء ويكفهر الجو وتتلبد السحب بالغيوم يشعر الكثيرون بالتعاسة إذ يقولون (أين هى الشمس ؟ يا له من يوم عبوس !) ويفهم آخرون — وهم أسمى روحاً — أن هناك وراء تلك السحابة المليئة بالمياه الغدقة شمساً لا تزال تشع . أليس من الخرق أن يُخدع بمثل هذا الحجاب رفيع كهذا أناس عقلاء ذوو حس ؟ ومع ذلك فالحد الذى يفصل بين الفرح والحزن دقيق كما أنه خداع ؛ مبهم لمن يميلون للظاهر ، وواضح لمن أوتوا الإيمان والذكاء فيرون الحق من خلالها

إذا كان حب شخص هو ما تظن أنه سيجعلك سعيداً فلا تعتمد على ذلك الحب . أحبب بقوة ما استطعت ولكن لا تطلب الحب إن لم تر هناك استجابة . الحب الصادق القوى هو المثل الأعلى ، ولكن إذا كان هناك تفاوت كبير فى الطبع وأنت نفسك الشخص الذى لا يميل إلى التبادل فيحسن بك العهد فى قلب اللعب الشرقى فى مدرسة الحكمة . وكنت قد فتشت عنه فى كل مكان هناك دون جدوى ، ثم وجدته فى المكان نفسه الذى هدانى إليه الحلم

أما الحلم الثانى فهو : كنت ذات ليلة جالساً فى دارى أطالع إحدى الصحف اليومية فجاءنى ولد لا يتجاوز الثالثة من عمره وضرب الجريدة التى فى يدى وطرحها أرضاً . ثم أخذ يداعبنى مقهقهاً ويلاعبنى راكضاً من كرسى إلى كرسى ، ومن ناحية إلى ناحية . والغريب فى الأمر أنى حلمت أن هذا الولد هو ولدى مع أنى ما كنت أباً فى ذلك الحين ولا متزوجاً

وبعد سنوات صح هذا الحلم بحذافيره ، إذ كنت صباح يوم جالساً فى المكان نفسه أطالع بعض الجرائد ، فخرج ولدى من غرفته وهو دون الثالثة من عمره وتقدم نحوى وضرب الجريدة وأوقعها من يدى . ثم شرع يلاعبنى ويركض مقهقهاً من مكان إلى مكان . وكان فى لباسه وكامل هيئته يشبه تمام الشبه الولد الذى عاينته فى الحلم

أليس من الغريب المدهش أن يشاهد المرء ولده فى الحلم قبل كثيراً أن تنقل انتباهك — مع إرادتك — إلى شخص آخر أكثر تلبية

والحب فى صدق وإخلاص ورزانة يمكن أن نطلق عليه بسهولة مسألة انتباه Attention . انقل انتباهك ، فينتقل حبك . وأنت لا تحب كل الملايين من الناس المحبوبين لأنك لا تعيرهم انتباهك ، ولأنك لا تعرفهم معرفة ألفة ، ولذلك لا يمكنك أن تفهم حياتهم . سيأتيك الحب بأخذك الاتجاه الإيجابى نحو الشخص الذى تحب واهباً لا سائلاً ، معطياً خطتك الحكيمة الاعتبار والانتباه الضروريين ...

ثم إن التعاسة ناشئة معظمها عن أننا نتصور غيرنا أسعد حالاً منا ، وعن أننا نريد أن نكون دائماً أسعد من سوانا ...

والشخص إذا أضاع كل شىء فعليه ألا يفقد الأمل وحب العمل . فالعمل المنتج يرفع القلب ويعلى الفكر ويشرف الشعور ويؤله النفس . وهل هناك سعادة فيما عدا ذلك أو فى شىء غير ذلك ؟

عبد العزيز عامر
دبلوم علم النفس وعضو نادى المتكلمين بانجلترا

بجيئه إلى العالم ؟ أإتفاقاً كان ذلك أم وحياً أم ماذا ؟

أما الحلم الثالث فهو : حلمت منذ أعوام أن أحد الأنبياء وهو شاب فى ريق العمر ونشاطه قد قضى نحبه فى أحد المستشفيات ؛ وبعد أيام قليلة جاءنى رسول يبلغنى خبر وفاته فى المستشفى نفسه الذى حلمته ممدداً فيه على فراش الموت

وأغرب من ذلك أن الشاب كان يتمتع بصحة يحسد عليها فلم يدر بخلدى أدنى خوف على حياته . ولم يكن لدى من داع لحدوث هذا الحلم الذى أوحى إلىّ بموته

أنا لا أدعى معرفة الغيب ولا ما يخبئه المستقبل فى طياته ، ولست من مدّعي النبوة ، أنا رجل من طلاب الأدب والعلم لا من طلاب المعجزات والخوارق . لكنى لا أنكر وجود قوة فى الإنسان تستبق معرفة الحوادث . هذه القوة ما تزال مستترة على العلم لم يسبر غورها بعد ولم يتح له تحديدها

فكم مرة يفكر المرء فى أحد أصدقائه ولا يلبث حتى يراه أمامه . وكم مرة يتخيل أمراً فيتحقق لساعته ، وقد قيل : « اذكر الذيب تو هيه قدامك »

أما الحلم الرابع فهو حادث عظيم من الغرابة ، لا يمت بصلة إلى الشهوات المكبوتة التى يقال إنها تستيقظ فى العقل الباطن فى خلال النوم ، ولا يتعلق أيضاً بموت أو ولادة أو كسب أو خسارة أو بما شاكل ذلك مما يكثر حدوثه بين الأحياء فيعلق بمخيلاتهم ويشغل أذهانهم ، فيأتيهم فى الحلم

لا أزال أذكر أننى ليلة الحلم أويت إلى مخدعى قبيل منتصف الليل ، وبقيت أتقلب على فراشى إلى ما بعد الساعة الثانية دون أن يغمض لى جفن من تكاثر قصف الرعود وتواصل هدير الزوابع والأمطار ، لأن الليلة كانت هائلة من أروع ليالى الشتاء برقاً ورعداً ومن أشدها برداً وزمهريراً

لم يتملكنى النعاس إلا فى المزيع الأخير من الليل ولم أكد أستسلم إلى سلطان الكرى حتى نزل علىّ هذا الحلم ، فشعرت ساعة نزوله كأننى لست بالنائم ولا بالمستيقظ بل بينهما ، وما بينهما سوى عالم الرؤى — عالم الأنبياء والأولياء — ولا شأن لى فى هذا العالم

فحلمت أن صديقاً لى توفاه الله منذ عدة سنوات هبط مخدعى وانتصب أمامى قائلاً : أنتم معاشر الأحياء تعتقدون أن المرء الذى تغادره الحياة تغادره المعرفة ويبرحه الشعور ، فتنقطع كل صلة له بكم وبعالمكم ، فيعود لا يدرى ما يحدث بأوساطكم ولا يشعر بأعمالكم ولا بسرائكم وضرائكم ؛ وهذا خطأ فاضح ، فالميت لا يفقد غير الحركة والنطق اللذين كان بهما يظهر لكم معرفته وشعوره ، ولا يعنى فقدانهما فقدان المعرفة والشعور ، بل فقدان الواسطة التى كان بها يتصل بكم

أجل ليس لدى الأموات ألسنة تتكلم ولا أجسام تتحرك لتعرب لكم عن معرفتها وإدراكها وشعورها بل هم بقوة الحياة الكلية — وقد أصبحوا جزءاً منها — غدوا أقوى منكم معرفة وأسمى إدراكاً وأشد شعوراً

كنت فى الحياة الدنيا أعدّ نفسى وبعدّنى الناس من فطاحل العلماء ، ومن أعاظم الدهاة الذين لا تخفى عليهم خافية ، وبعد الموت تبينت جهلى وجهل الناس تقدير إدراكى ومعارفى

فأنا الذى كنت أحسب عالماً لم أكن إلا على يسير من العلم ، وأنا الذى كنت أعدّ مدركاً لم أكن إلا على ذرة من الإدراك لأننى لم أعرف من شجرة الحياة طيلة حياتى إلا قشورها

كنت على جانب عظيم من الجهل لأننى لم أتمكن فى الحياة من معرفة أقرب المقربين إلىّ ، الذين كنت أساكنهم أو كانت تربطنى بهم صلة من الصلات . أما اليوم فقد حررنى الموت من الجهل ، فغدت علومكم التى كنت أتبجح بمعرفتها بمثابة الألاعيب صبيانية أمامى ، وصارت دنياكم الحافلة بالرموز والأسرار والأحاجى مضيئة عن ظهر قلبى ، وبواطنكم المستترة التى لم أدرك كنهها فى الحياة أصبحت اليوم واضحة حيال ذهنى وضوح شمس الظهيرة

لقد كنت مخدوعاً حقاً فى كثير من الأمور . مخدوعاً فى معرفتى لنفسى ومعرفتى للناس . فجاءنى الموت يعرفنى بنفسى مبيناً لى مقدار قصورها وعجزها فى المعرفة خلال الحياة . ويعرفنى بالناس كما هم لا كما كنت أتوهم معرفتهم . لأنه أظهر لى ما تكنه طبائعهم من خفايا الغرائز والنزعات التى كانت غامضة علىّ كل الغموض

لقد كنت مخدوعاً بالمظاهر الخارجية إلى أقصى حد . فكم رجل كنت أحسبه صديقاً فكان عدواً . وكم إنسان كنت أعدّه مخلصاً فكان مخاتلاً . وكم رجل دين كنت أعتبره جم الفضائل فكان جمّ الرذائل . وكم امرأة كنت أعتقد بها الطهر والورع فكانت على غير ذلك

أما الآن فقد تجاوزت عالم الغش والخداع والتمويه إلى عالم الحقائق فأصبحت أرى كل شيء واضحاً جلياً . إني أطل عليكم من كوة هذا العالم — عالم الحياة الكلية وأرقبكم من نوافذها المشمة فى دخائل أذهانكم وقلوبكم : وأتفقد أعمالكم وكل ما يصدر عنكم من خير أو شر . وإني لعالم بكل ما تظهرون وما تكتمون

ولست وحدى أعلم ذلك بل يعلمه مثلى كل من حرره الموت من قيود دنياكم وأصبح متحداً بالحياة الكلية التى تسبح عليه نعمة المعرفة الكاملة

فالأموات يرونكم دائماً وأنتم لا تشعرون برؤيتهم إياكم ، ويتفقدونكم دائماً وأنتم لا تعلمون بتفقدهم لكم ، لأنهم أصبحوا أرقى منكم معرفة وأسمى روحاً وأنفذ بصيرة

فكم من رجال حولى يتطلعون إلى دنياكم ويرقبون فيها أبناءهم وأحفادهم ويرون ما آلوا إليه من الضنك والفقر على الرغم من كثرة ما أورثوهم من مال وعقار . فهم يشاهدون أموالهم التى اكتسبوها بعرق الجبين وادخروها لأبنائهم كيف تتبدد فى الحانات والمواخير وأندية الميسر والخلاعة ، ويأسفون لضياعها فى بؤرة الفساد ويتألمون لأنهم لم يعملوا بها عملاً مفيداً للجنس البشرى بدلاً من توريثها لمن لا يستحقها

أما دنياكم هى دنيا الحروب والمطامع — دنيا الرياء والأباطيل — دنيا الأخطاء والفواحش — دنيا الخوف والجهل والضعف . ولهذا نحن نشفق عليكم بالرغم من كثرة شذوذكم وتهوركم على الأخص من معرفة الحقيقة — حقيقة نفوسكم وحقيقة غرائزكم . كأن الحقيقة هى غول دنياكم تخشونها كما تخشون الموت ، والحقيقة وحدها هى رجاؤكم الوحيد . فخير لكم أن تظهروا على علاتكم بدلاً من أن تتقنعوا بأقنعة الغش وتتستروا بها ، فهى لا تستركم عن وجه الحق . فالأقنعة فانية والحقائق باقية .

انتهى الحلم فاستيقظت فور انتهائه وأنا أردد عبارته الأخيرة . فقلت فى نفسى هل الأقنعة الفانية هي أجسامنا التى نتعارف بها فى هذا الكون ، والحقائق الباقية هى جوهر الحياة الذى لا يدركه الفناء . ثم عكفت على نفسى أسألها : كيف جاءنى هذا الحلم ؟ وهل يحلم المرء بما لا يدركه وما لا يقع تحت حواسه ؟

ألا تبلغ المخيلة شأواً لا تبلغه الحواس ولا يصل إليه الإدراك ؟ أليس للدين الذى يلقن الإيمان بالحياة الأخرى ضلع أيضاً فى هذا الحلم المرتكز على الإقرار الصريح ببقاء الحياة بعد الموت ؟

أليس لمعضلات الحياة الدنيا ومشاكلها أو بالأحرى ، أليس لتطلعي لمعرفة أسرارها وحل رموزها وأحاجيها يد فى إلهام هذا الحلم الذى يعللنى بكمال المعرفة بعد الموت ويشبع رغباتى وتمنياتى ولو فى العالم الآخر بالوصول إلى ذروة الإدراك : إدراك دقائق الحياة وخفايا الكائنات ؟

(بيروت) **توفيق حسن الشرتوني**

مصلحة السجون

إعلان مناقصة

تقبل عطاءات عن توريد خوص وليف نخيل بلدى لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٧ — ٥ — ١٩٤٤ ويمكن الاطلاع على الشروط بالمصلحة وبوزارة التجارة والصناعة وبالغرف التجارية المصرية وتشترى بمبلغ ٧٠ مليما ٢١٥٥